I. الحضارة العربية ـ الشرقية في عهد الخلفاء

I. الحضارة العربية ـ الشرقية والتمهيد لها في عهد الخلفاء الأمويين

١ ـ حضارة تركيبية (عربية ـ إسلامية ـ شرقية) أو حضارة شرقية متجددة

الحضارات، كالأفراد، تتحدر من والدين إثنين، وفي جميع الحضارات التي يمكننا أن نقتفي آثارها نرى أن إرث الأمم المتحضرة أكبر من إرث الطاغية الذي اغتصبها[1].

لقد رأينا في ما سبق أن الدين الإسلامي، ومن وجوه عديدة، هو جمع توحيدي فضلاً عن أنه تبسيط لما سبقه من عقائد دينية في العالم الشرقي القديم: يهودية، مسيحية، مزدية، تقاليد عربية سابقة للإسلام، إلخ... وهذا الدين التوحيدي، الذي مدته عبقرية الرسول ﷺ بالقوة والحياة، ولّد تشريعاً وأدباً إسلاميين غيّرا وضع البشر الشرقيين ولكنهما تغيرا بدورهما بفعل أولئك البشر.

وعلى غرار ديانة عرب الإسلام فإن الحضارة العربية ـ الإسلامية، التي سطعت بتألق كبير أيام حكم الخلفاء، كانت هي الأخرى، كما رأينا، حضارة تشكيلية تغوص جذورها في تراث الماضي الشرقي السابق للإسلام. فتلك الحضارة هي نهضة فكرية وفنية لحضارات قديمة هي حضارات بابل ومصر وأشور وكلده وفينيقيا وفارس واليونان والرومان والبيزنطيين التي إزدهرت على التوالي أو معاً في عالم الشرق الأدنى خلال عصور ما قبل الإسلام.

1 A. Toynbee, cité par B. Thomas. *op. cit.*, p. 132.

إن الحضارة المسماة عربية أو إسلامية المركبة للغاية، والتي شهدت ذروتها خلال القرن الأول من خلافة العباسيين (٧٥٠ ـ ٨٤٢) يسميها المؤرخ فون كرامر وعن ذكاء: «حضارة الشرق تحت حكم الخلفاء» أو أيضاً «الحضارة المشرقية» (Sarrazine) وهذه الكلمة رطن لفظي غربي لكلمة شرقي. ويمكننا أيضاً تسميتها: «بالحضارة العربية ـ الشرقية في عهد الخلفاء».

وبرغم أن الإسلام خرج من جزيرة العرب فليس هناك، إن صح القول، «حضارة ولا هندسة ولا موسيقى عربية». وبالفعل فإن آثار الحضارة العربية ـ الإسلامية التي يمكن أن نقع عليها من الهند وحتى إسبانيا هي نادرة جداً وسطحية في جزيرة العرب نفسها.

إن الثقافة العربية ـ الإسلامية، التي كانت سامية ـ عربية خالصة في البداية، إختلطت فيما بعد بعناصر إيرانية وبيزنطية تسربت إليها بعد إمتداد الفتوحات «وإن هذا المركّب من العناصر المتفرقة، والمتناقضة غالباً الذي إمتزجت به ذكريات مكة وسورية اليهودية والمسيحية وبيزنطية وبرسيبوليس» هو ما نسميه عامة: الحضارة العربية.

«إن الإسلام، وهو آخر فرع من الحضارتين الشرقية واليونانية، ورث من كل ما شادته هاتان الحضارتان. ومثلما إنطلق دينه من اليهودية والمسيحية فإن فنه هو تركيبة من الطرازين البيزنطي والفارسي... وينطبق على العلم والفلسفة والقانون في الإسلام ما ينطبق على دينه وفنه. فهو قد أخذ كل ذلك من عهد القدم اليوناني ـ الروماني ونقله إلى اللغة العربية. فالعلم والفلسفة اللذان كانا يدرسان في جامعات خلافات بغداد وقرطبة هما نفسهما اللذان كانا يدرسان في الإسكندرية وأنطاكيا. أما مؤسسات الإسلام فقد أنشئت على أساس تلك التي كانت قائمة في الأمبراطوريتين الرومانية والساسانية. وقانونه التجاري كان القانون الرودي كما أن الكتاب السوري ـ الروماني، وهو النسخة السورية من شرعة يوستينيانوس، هو الموجز الحقيقي الذي إرتكز عليه القانون الإسلامي...

إن المدارس الإسلامية الكبرى التي كانت العربية لغتها العامة والتي أُنشئت على شاكلة مدارس الإسكندرية وأثينا في المدن التجارية من آسيا الأمامية كما في بغداد والبصرة وبخارى والكوفة وفي أهم مدن إسبانيا، ستحيي طوال ثلاثة قرون تراث العلم الإسكندراني والأرسطوطاليسي والأفلاطوني الجديد. أما حرية الفكر

الأتم فستسمح لبعض اليهود والمسيحيين بأن يعلموا إلى جانب سلسلة رائعة من الأساتذة المسلمين كان لها الفضل في إنقاذ تراث الفكر القديم ونقله لاحقاً الى الحضارة الغربية. إن الثقافة في العالم الإسلامي، كانت أصلاً، وأسوة بما كانت عليه في العهد الهلليني، عالمية وقد شارك فيها عرب وفرس وسوريون ومصريون وتونسيون وإسبان من غير أن يظهر أي فارق قومي بينهم. وككل عصور النهضة الكبرى، فإن الاسلام بحث عن تبرير وجوده في التاريخ العالمي[2].

٢ ـ مآتي عرب الجزيرة العربية وإسهاماتهم في إنطلاقة الحضارة العربية ـ الشرقية

إن الواقع الذي يقول بأن الحضارة العربية ـ الإسلامية قد إقتبست كل شيء تقريباً من مجتمعات الشرق القديم الحضرية لا يعني أبداً أن عربي الجزيرة العربية هو عاجز عن إنتاج حضارة وتطويرها. بل على العكس فهذا المجتمع البدوي هو، كما رأينا، مؤلف من أفراد أذكياء وأقوياء ويتمتعون بأبدع صفات الطبع. لكن الأوضاع الطبيعية والإقتصادية في جزيرة العرب القاحلة لا تؤمن للسكان ذلك العنصر الأساسي لكل ثقافة أي الموارد الإقتصادية الدائمة نوعاً ما والتي تسمح بتدارك مفاجآت المستقبل. ذلك أن أوقات الفراغ والغنى المادي والأمن هي ما يسمح للناس بأن ينصرفوا إلى مباذل الحياة والترف والرفاهية أو بتعبير آخر إلى الفنون العليا التي تصنع الحضارة.

أ ـ الوحدة السياسية واللغوية، السلم الداخلي

لم يستطع العرب جمع ثروات أو المشاركة في إنطلاقة الحضارة إلا بعد خروجهم من وسطهم الأصلي، حيث كان فقر الأرض يحكم عليهم بالبقاء رعاة رحّلاً، وإستقرارهم في بلدان الفتح.فيكون فضلهم في أنهم عرفوا قيمة تلك الحضارات المتفوقة القائمة في البلدان التي إستقروا فيها،وبخاصة أنهم حملوا إلى ذلك العالم الواسع الذي أخضعوا،وحدة أمبراطورية ونظاماً سياسياً ولّدا بدورهما نظاماً وإزدهاراً إقتصاديين ووحدة لغة ودين وثقافة. ومن المهم أيضاً أن نضيف أن إمتزاج عرقهم الأصلي مع الأمم الشرقية القديمة قد جدد شباب تلك الأمم موقتاً.

2 Pirenne, *Les grands courants de l'Histoire universelle*, II, p. 20-21.

ب ـ القرآن

إن العرب زودوا أيضاً صرح الحضارة الشرقية المجددة في كنفهم بإسهام آخر عربي خالص هو القرآن الكريم. هذا الكتاب المقدس كان له بالفعل أثر كبير على الحركة الأدبية وحتى العلمية في ذلك العصر. بل ويمكننا القول إنه كان سبب النهضة الأدبية التي تلت التوسع الإسلامي في الشرق الأدنى. وهكذا فإن القرآن الكريم الذي ولّد ديناً وأمبراطورية أنتج أيضاً أدباً وإن الخلافة العربية ـ الإسلامية مدينة بروعتها إلى الآداب أكثر منها إلى السلاح.

فالقرآن، وأسوة بالتوراة، يتضمن قواعد قانونية أسهب الفقهاء المسلمون في التعليق عليها وشرحها. وإن مؤرخي الإسلام الأول بتدوينهم ومناقشتهم الأحاديث الخاصة بحياة الرسولﷺ إنما ساعدوا على شرح القرآن الكريم وتفسيره. والجغرافيون الأول كانوا أولئك الحجاج الأتقياء القادمين من كل أقطار العالم والمتجهين إلى مكة فكانوا يكتبون إثر عودتهم قصة رحلاتهم. والنحويون بسعيهم إلى توضيح الصعاب الواردة في نص القرآن الكريم إنما أرسوا إنطلاقاً من هذا النص المقدس مبدأ صرف اللغة ونحوها. ووقت الصلاة وزمن الصوم وتاريخ الحج السنوي أثارت إهتمام ومراقبة علماء الفلك وحسابات علماء الرياضيات. كما أن العقائد الدينية أثارت مجادلات الفلاسفة. وإن قواعد الصحة ومسائل الطب الشرعي، التي إحتواها القرآن الكريم، إستدعت تدخل الأطباء. وبإستثناء بعض شعراء الصوفية فإن الشعراء عامة وحدهم قاوموا تأثير القرآن الكريم، وقد حذوا حذو الشعراء العرب في عصر ما قبل الإسلام أو شعراء فارس.

«ويمكننا القول بلا مبالغة إن كل أدب ما بعد الإسلام ليس إلا تعليقاً على القرآن الكريم المعتبر من وجهة نظر خاصة إما عقائدية أو تاريخية أو علمية. وإن كل الكتب أياً كانت، هي منشورة تحت شعار التضرع إلى الله والرسولﷺ وهي مليئة بالإستشهادات التقية. وإنه لعمل تقي قراءة القرآن الكريم ونسخه، إنه أساس التعليم الإبتدائي وقد أعطى علاوة على ذلك فناً بالغ التقدير لدى الشرقيين وهو فن الخط»[3].

3 J. Preux, «Arabe», *La Grande Encyclopédie*, 3, p. 491.

٣ ـ إسهام الشرقيين المستعربين

أ ـ نشوء الأدب العربي

بيد أن هذا الأدب العربي ـ الإسلامي المبني على القرآن الكريم المستورد من جزيرة العرب هو بخاصة من صنع السكان الأصليين الذين إعتنقوا الإسلام والذين يسمون الموالي أو الأنصار. وكان العلماء الدينيون من كل أقطار العالم الإسلامي فضلاً عن الطلبة يقصدون المساجد الكبرى في مكة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة،وكانت أشبهُ بجامعات الحقوق وعلم التفسير واللغة. «والأمر الغريب في الأدب العربي أن العرب يشكلون الأقلية فيه. فمن كانوا ينهلون من معين الثقافة العربية أو يتشربون بقوة من اللغة والفكر العربيين كانوا في معظمهم من غير العرب (آراميين، فرساً أو طورانيين) وسواء أظلوا مستقرين في المدن الكبرى الجامعية أو عادوا إلى أوطانهم فقد كانوا يعلمون أو يكتبون بالعربية»[4].

ب ـ تثبيت اللغة العربية

لقد كان الموالي هم الذين ثبتوا اللغة العربية. «فاللغة الرسمية للأمبراطورية لا يمكنها أن تكون إلا العربية. لكن في آسيا كانت هناك صعوبة خاصة في كون اللغة العربية ذلك الوقت لم تكن قد صارت بعد لغة حقيقية أو لغة عامة بل كانت مجموعة من اللغات المحلية. . . ولا ريب، يقول كرامر، أن الوحي الذي نزل على محمدﷺ قد كتب أولاً بلغة أهل مكة، ومن المؤكد أنه ومع مرور الوقت وإنتقال القرآن الكريم من شفة إلى شفة ومن أذن إلى اذن على مساحات متزايدة في الاتساع من البلدان الأجنبية، تعرضت صحة اللفظ والنص لكثير من التغيير.

لقد كان هذا وضعاً غير مقبول في أمبراطورية عربية كبرى موحدة. فكان يقتضي أن تصبح العربية لغة حقيقية أي لغة صنعية. إن كل اللغات هي صنعية وهي من نتاج علماء اللغة والصرف والنحو وواضعي المعاجم. إن عرب الفتح ـ يقول كرامر ـ كانوا بالغي الكبرياء والجهل مما جعلهم غير أكفياء للعمل في دواوين الأمبراطورية أو مكاتب المحاسبة أو إدارة المالية. لذا فإن كل هذه الوظائف قد شغلت منذ البدء من قبل رجال مثقفين من الشعب

4 Preux, *op. cit.*, p. 491.

لمحتل، من السوريين في مقاطعات بيزنطية القديمة أو الفرس والآراميين في المقاطعات الفارسية القديمة. وهكذا أصبح المهزومون فوراً رجال قلم الأمبراطورية، وكانت الكتابة واللغة تحت تصرفهم الحكري. وقد تدربوا وراثياً، كل في مجال لغته، على إستخدام الصرف والنحو والمعاجم وعلى حسنات القواعد الدقيقة والموحدة، وتمرسوا بدقائق عمليات الصرف والنحو.

وهكذا ولد، يضيف كرامر ومنذ غداة الفتح «فقه اللغة العربية» بفعل تكوين قواعد اللغة. . . وكان للموالي الشأن الأكبر في التمهيد لفقه اللغة العربية وتكوينها. . . وقد عكف هؤلاء الموالي بجد بالغ على دراسة القرآن الكريم وتفسير قصائد المعلقات. فكانوا بحق مؤسسي اللغة الحقيقيين. ولتحديد قواعد اللغة استند الموالي، وبحذر له ما يبرره، الى سلطة القرآن الكريم الراسخة وحسب»[5].

ج ـ نشأة علم الدين الإسلامي

«وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الموالي، وفي سياق دراستهم للغة القرآن الكريم، لم يتمكنوا من تجريدها من المعنى الذي تحمله. فقد كانوا، أقله في سورية، مشربين وراثيا برهافة بيزنطية ويتمتعون بالروح المدرسية. ويسلم كرامر بأن المسلمين الأولين إنجذبوا تدريجاً إلى دائرة أفكار اللاهوت البيزنطي وتعلموا المبارزة الجدلية من الرهبان. ومن هنا برزت الجهود الأولى لتثبيت العقائد الإيمانية في الإسلام. إن الوسط البيزنطي، الذي كان الموالي التعبير الصادق عنه، قد يكون أقلّه ولّد، وإلى درجة يصعب تحديدها بدقة علم الدين الإسلامي. وهكذا يكون الموالي قد ابتكروا علم الدين كما ابتكروا قطعاً اللغة»[6].

د ـ العلوم والفنون العربية ـ الإسلامية

إن العلوم والفنون في أيام حكم الخلفاء تتمتع هي الأخرى بخاصيات ذلك المركّب المهجن الذي هو الحضارة العربية ـ الإسلامية. لقد ظهرت جدارة الشرقيين المستعربين على نحو ما كان عليه أسلافهم القدامى وعلى الأخص في العلوم الإختبارية.

«وهكذا بذلوا جهداً فائقاً في الملاحظة والبحث ثم في تصنيف ثمرة

5 Gautier, *op. cit.*, p. 219-221.
6 Gautier, *op. cit.*, p. 221-222.

ملاحظاتهم. وقد إنصب الجهد الرئيسي لنشاطهم على السرد والوصف. وإتخذ التاريخ والجغرافيا مركز الصدارة في أدبهم. ولما كانوا مفكرين حذقين وملاحظين بارعين فقد إنكبوا على علم الرياضيات وعلم الفلك. وللأسباب نفسها نجحوا في بناء نظرية كاملة في علم الحقوق وعلم الصرف والنحو وعلم اللغة. وفي المقابل وفي حقل الفكر المجرد والعمل النظري الصرف لم يخرجوا إطلاقاً من إطار الفلسفة الأرسطوطاليسية أو الأفلاطونية»[7].

وفي أيام حكم الخلفاء العباسيين الذين نقلوا الغاصمة من دمشق إلى بغداد فإن النفوذ الفارسي الذي حل محل نفوذ السوريين تجلى في تشريفات البلاط واللباس والفنون وبخاصة في الأدب العربي الذي كان حتى ذلك الحين مقتصراً على الشعر والخطابة فقط.

لقد رأينا أنه، ومنذ القرن الرابع، عمد العلماء الآراميون في مدارس قدس ونصيبين المسيحية إلى ترجمة أعمال الفلاسفة والعلماء اليونان إلى السريانية التي كانت تدرس بخاصة في بلاد ما بين النهرين وسورية. وبفضل تساهل الخلفاء العباسيين الأول فإن العلم اليوناني القديم خرج من المدارس والأديرة التي كان لاذ إليها،مما سمح لمفكري البلاد المحتلة من عرب وسكان أصليين متحولين إلى الإسلام أو غير متحولين إليه بأن ينهلوا من ذلك المورد العلمي ويسهموا بقوة في ولادة حضارة العباسيين العربية ـ الشرقية المتألقة.

«وهكذا انتشرت العناصر الهللينية والآرامية والهندوسية بين العرب بسرعة بفضل المترجمين الذين بدا دورهم رئيسياً في القرنين الثامن والتاسع. وأما تأثير الفرس فيبدو أقل مما كان يظن سابقاً... وقد ظهر بخاصة في الشعر الذي إختلف طابعه. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفرس المستعربين علموا العرب الذين كانوا بعد غير بارعين في التفكير الدقيق، جزالة العلوم وقوة الجدلية المنطقية وإن دورهم بإيجاز يبدو على أنه دور مكيفين»[8].

إن معظم الشخصيات البارزة في الحضارة العربية ـ الإسلامية هم من أصل فارسي أو سوري على أن نضيف إليهم بعض اليهود والمسيحيين.

هـ ـ نشأة القانون العربي ـ الإسلامي

إن القانون الإسلامي وهو التعبير عن عادات وأعراف المجتمع هو في

7 Von Kremer, cité par Preux, *op. cit.*, p. 492.
8 Massé, *op. cit.*, p. 53.

أساسه شرعوي وشكلي ويتضمن مجموعة عقائد دينية وشعائر وأوامر سبق أن عرضناها وهي تنتمي، كما رأينا، إلى الإرث العربي والشرقي لما قبل الإسلام. وإن محمداً ﷺ لم يبت المسائل المدنية والشعائرية ويُملِ القوانين الأساسية للإسلام إلا بعد الهجرة وفي سُور المدينة متوجهاً كزعيم ديني وسياسي. وفي تلك القوانين التي تشبه التيوقراطية اليهودية «ينبغي أن نبحث عن أصول الخلافة»[٩].

بيد أن التكوين النهائي للقانون الذي سيحكم الإسلام حصل بعد ذلك بقليل لدى احتكاك هذا الدين، بعد انتشاره، بالأوساط الآرامية في سورية والعراق. «فالعقيدة المسلمة ولدت من تجربة المائة والخمسين سنة الأولى التي تحول خلالها الفكر الإسلامي وتوسع إثر إحتكاكه بالعناصر الخارجية»[١٠].

لقد تكوّن القانون الإسلامي في سورية والعراق بخاصة منذ القرن الثاني للهجرة، كما أنه وتحت تأثيرات التشريعات التلمودية والرومانية البيزنطية تمكن الفقه من توفير وثيقة قانونية شبه كاملة. ويعترف المؤرخ إبن خلدون نفسه بأن دور الفرس في الحديث الشريف كان كبيراً شأنه في التفاسير والعلوم الدينية والمبادىء الأساسية للفقه وفي الدين العقائدي وشرح القرآن الكريم.

«إن الفتوحات... وضعت العرب وجها إلى وجه مع شعوب تحكمها قوانين قديمة (يهودية ورومانية وفارسية) كان لها أثرها على الإعداد الأولي للقانون الإسلامي. فهذا الفقه لم يولد من تلقائه لدى العرب بل تنظم خلال القرن الثاني بعد الهجرة، في سورية والعراق إثر إتصالات مع المدارس المسيحية للحقوق. وقد بين غولدزيهر مصطلحات عدة معادلة لبعضها بعضاً بين العربية واللاتينية»[١١].

9 Montet, *Le Coran*, p. 46.
10 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 107.
11 Massé, *op. cit.*, p. 91, 92.

II. الحضارة الأموية في ظل حكم خلفاء دمشق

إن خلفاء المدينة (٦٣٢ ـ ٦٦١) «ظلوا أمناء. . . لتقاليد عرقهم: عرباً كانوا وعرباً يبقون، مشايخ صحراء بلا ترف أو بلاط أو حاجات» (غروسيه). وفي ظل حكم خلفاء دمشق الأمويين (٦٦١ ـ ٧٥٠) جرى الإعداد للحضارة العربية الشرقية. وفي ظل خلفاء بغداد العباسيين فإن إنتعاش المجتمعات الشرقيةبفضل تطعيمها بالعنصر العربي بدأ يؤتي ثماره فعرفت الحركة الأدبية والفنية والعلمية أوج إنطلاقتها.

١ ـ الأدب الأموي

الشعر.ـ ظل الشعر الأموي أميناً للتقاليد العربية القديمة أي أنه ظل بدوياً خالصاً. ظل شبيهاً بشعر الجاهلية إلى حد أن التأثير الديني بقي ضعيفاً جداً فيه. وبرغم أنه واكب الفتوحات الكبرى أو تلاها مباشرة إلا أنه كان خالياً من أي عنصر ملحمي. فحياة البلاط أعلت نبرته الغرامية. وأصبح الشعر أكثر ميلاً إلى الغزل. وفي بلاط دمشق كان شعراء القوافي يطنبون في مديحهم لمن يدفع لهم. وكانوا يؤلفون قصائد الهجاء والذم إلخ. . . التي كانت في معظمها خالية من الروح الشعرية الحقيقية. «وكان شعراء ذلك العصر المؤثرون في الرأي العام بمثابة الصحافة الحقيقية في هذه الأيام» (غودفروا ديمومبين). وفي بلاط الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥) عاش ثلاثة شعراء كبار على الطريقة البدوية وهم: الأخطل الكبير وهو مسيحي، وجرير ومنافسه الفرزدق..

النثر.ـ تميز النثر الأموي بجوه الديني. فتحت تأثير السكان الأصليين الذين إعتنقوا الإسلام وكان لديهم نثر لاهوتي ولد الحديث الشريف وهو سرد مقتضب نصه رشق وحي والخطبة التي كان القادة يلقونها على المؤمنين من على

منابر المساجد أيام الجمعة. وعن طريق إستخدام النثر المقفى (السجع) كانت تلك الخطبة ترتقي أحياناً كثيرة إلى مرتبة البلاغة.

«وفي زمن الفتح لم يكن هناك نثر عربي... لقد رأى النور في العهد الأموي للإيفاء بالحاجات الجديدة لدى حكم دولة كبيرة وتحت تأثير شعوب خاضعة تمتلك بدورها نثراً خطابياً ولاهوتياً وما تزال تتلقى بعض الومضات من الإشعاع اليوناني. ففي ذلك الزمن الجديد ولد النثر العربي بشكل خطابات رسمية أو خطب الخليفة أو خطب الحجاج أو بعض المناشير الخليفية أو الأحاديث»[12].

اللغة والكتابة.- كانت اللغة أيام الأمويين من بعض جوانبها قد أصبحت متطورة جداً وغنية من حيث الأشكال وإعرابها ومفرداتها لكن طبعها الواقعي جعلها غير صالحة لترجمة التعابير المجردة.

«إن تثبيت الكتابة العربية يعود إلى عهد الأمويين ويبدو أن الحجاج أيضاً (حاكم العراق) هو من أعطى الحروف الحركات التي تشكلها وتميزها... وإذا كانت اللغة المادية قد تحسنت كثيراً بيد أنه كان ما يزال ينقص النثر العربي إيجاد مفردات وتركيب الجملة التي تسمح بالتعبير عن الفكر المجرد. ومن الملفت للنظر أن روائع النثر العربي الأولى كانت ترجمات إما من البهلوية (الفارسية) أو الآرامية أو اليونانية. وكانت تلك الأعمال بالطبع من فعل سكان أصليين تحولوا من وقت قريب إلى الإسلام وكانت العربية بالنسبة إليهم لغة غريبة. فهؤلاء المترجمون هم جدود الإيرانيين الذين تحت حكم العباسيين سيصنعون مجد الفكر «العربي»[13].

٢ ـ الفنون الأموية: المسجد

إن العرب الذين جاؤوا من بلاد تفتقر إلى الإنتاج والتراث الفنيين، والذين كان دينهم يحرم عليهم تصوير الوجه البشري والأشكال الحيوانية، وجدوا أنفسهم بعد الفتح في بلدان تزدهر فيها الفنون المحلية وترجع إلى فجر التاريخ الشرقي.

وفي الأصل كان المسجد (الجامع أو مكان التجمع) مبنى يجتمع فيه

12 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 256.

13 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 257, 258.

المسلمون لتأدية الصلاة جماعة. «وكان ذاك هو «البيت المشترك» للمسلمين أو بيت إجتماع وليس هيكلاً أو معبداً ذا طابع مقدس: فلا يوجدأي تمثيل للإله فيه ولا أي شعار أو ذخيرة دينية أو سر مقدس. . . وإن كل الحياة السياسية والإجتماعية كانت تجري فيه: والنبي محمدﷺ كان ينشر فيه تعليماته الدينية وأوامره حول الحياة الإجتماعية والإقتصادية. . . إنها الفتوحات والإعجاب الناجم عن رؤية فخامة مباني المسيحيين الدينية هو ما علم المسلمين بناء المساجد الرائعة المزينة بالفسيفساء على الطريقة البيزنطية»[14].

وأول مسجد كبير شيد في المدينة زمن الرسولﷺ كان مبنى متواضعاً ذا سقف من أغصان الأشجار المغطاة بالطين تدعمه جذوع شجرات نخيل». وفي أيام حكم خلفاء المدينة كانت مساجد القدس والفسطاط والكوفة ما تزال بسيطة وخالية من أي تزيين. ولكنها إكتسبت بعض الأناقة بفعل الأعمدة وسواها من المواد المنتزعة من المعابد والقصور الخربة وبفعل براعة الفنانين المحليين.

وفي أيام حكم الخلفاء الأمويين فإن العرب، الذين حولوا بعض الكنائس إلى مساجد وألفوا الروعة الهندسية، تبنوا أنماطاً من المباني الدينية منقولة عن الكاتدرائيات المسيحية في سورية. وكانت الشعوب المحتلة تزود بالمهندسين والبنائين وسواهم من الحرفيين.

«وبعدما أصبح الأمويون، قياصرة مسلمين حقيقيين أرادوا أن يضارع بلاط دمشق بلاط القسطنطينية بروعته. وعزموا على امتلاك قصور ومساجد تجاري القصر المقدس البيزنطي وكنيسة القديسة صوفيا. وقد إستعانوا بمهندسين يونانيين لملاءمة الفن البيزنطي مع متطلبات الشريعة القرآنية وهكذا ولد الفن العربي»[15].

ويبدو أن الفن وجد شكلاً كاملاً في عهد الأمويين. فالمساجد والقصور والدور المبنية في ذلك العهد في القدس ودمشق والمدينة ومكة تشهد على هندسة جميلة وهي من طراز سوري ـ بيزنطي أصلي.

«فالمبنى الرئيسي في الفن العربي هو بالطبع المسجد. . . وإن الصروح الأموية الرئيسية تقع في القدس ودمشق. فمسجد قبة الصخرة في القدس

14 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 127.

15 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 157, 158.

والمسمى خطأ بمسجد عمر، بناه حوالي العام ٦٨٨ ـ ٦٩١ الخليفة الأموي عبد الملك ناهيك بما أضيف عليه من جديد من مواد بيزنطية وأعمدة وتيجان أعمدة، إلخ . . . أما المسجد الأقصى المجاور له الذي إقتبسه الخليفة عبد الملك نفسه نقلاً عن مخطط لكاتدرائية قديمة بناها يوستينيانوس فضلاً عن المسجد الكبير أو المسجد الأموي في دمشق الذي بني حوالي العام ٧٠٨ في عهد الخليفة الوليد على موقع كنيسة مسيحية للأمبراطور تيودوس فهما ينطبقان على التصميم التاريخي للمسجد»[١٦].

إن العرب، وقد أعجبوا بجمال الكنائس المسيحية التي تعد خليقة بالله، فقد إقتبسوا منها العديد من العناصر في بناء مساجدهم. إن تصميم تلك المساجد «يبدو مقتبساً عن الكاتدرائيات المسيحية في سورية. الباحة الخاصة بالوضوء تحاكي الفناء الداخلي أو الباحة الداخلية والليوان يماثل رواق الكاتدرائية والشعرية تماثل المنبر والمحراب يماثل صدر الكنيسة بشكل مصغر والمئذنة تماثل قبة الجرس»[١٧]. «إن المئذنة، التي يطلق منها المؤذن إلى المدينة النداء إلى الصلاة مشتقة من برج الكنيسة. . . والمحراب ليس سوى تصغير لصدر الكنيسة. كما أن المنبر الأموي يشبه منصة الخطبة في الكنائس. وأما المقصورة التي ينفرد فيها الخلفاء فتذكرنا بالمقصورة الأمبراطورية أيام الملك البيزنطي. إن التأثير البيزنطي على الفن الأموي واضح. وإن مباني مثل حمامات قصر قصير عمرة وقصر المشتى تشهد على أن طابع المباني التي شيدها الخلفاء الأمويون هو طابع هلليني حتماً»[١٨].

16 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 158, 160, 162.
17 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 159, 160.
18 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 258, 259.

III. الحضارة العباسية أيام خلفاء بغداد

رأينا أنه وتحت حكم الخلفاء الأمويين الذين عرفوا كيف يحافظون على النظام والإزدهار في الأمبراطورية نشأت أول حضارة عربية شرقية أو أموية وهي حضارة كانت بذورها هاجعة في الشرق منذ قرون عدة وقائمة منذ الآف السنين في تلك البلدان القديمة كبابل وأشور وكلده وسورية وفينيقيا ومصر وفارس. إن الخلفاء العباسيين، بمحافظتهم على الأوضاع المادية التي سمحت لتلك الحضارة الأموية بالتفتح والتطور وبفضل تساهلهم وحمايتهم الحكيمة إنما دفعوا تلك الحضارة إلى أوج إزدهارها.

١ ـ النهضة الثقافية لدى الشعوب الشرقية القديمة

أ ـ الحضارة العباسية صنيعة السكان الأصليين الذين إعتنقوا الإسلام

إن تطور العالم الإسلامي سياسياً وثقافياً في عصر العباسيين تغير فنهاية سيادة القبائل العربية في الإمبراطورية التي تلت نفاد حيويتهم القتالية تزامنت مع وقف أمبريالية الإسلام التوسعية. وباتت بعدها أعمال الحرب خاضعة لأعمال السلم.

إن هذه الأحداث، وعلى الصعيد الثقافي، تشير إلى الإنبعاث التام لشعوب الشرق المتحضرة القديمة والمعتبرة حتى ذلك التاريخ من الموالي أي مسلمين من الدرجة الثانية. إن سلالات تلك الشعوب الشرقية القديمة، وقد إنتعشت بفعل التطعيم مع العرب وتجددت تحت تأثير الدين الإسلامي الجديد، ستعطي من جديد العالم وتحت إدارة الخلفاء العباسيين الحكيمة الحضارة العربية ـ الشرقية الكبرى في بغداد.

«إن الحضارة الإسلامية تطورت في اللحظة التي توارى فيها العربي عن المسرح العسكري والسياسي... فالعباسي ورعاياه صحيح أنهم عرب ديناً

ولغة إلا أنهم لم يعودوا عرب الفتح، عرب الجزيرة العربية. بل أصبحوا أولئك الموالي القدماء المستعربين... أي السكان الأصليين المتحضرين القدماء في البلدان المحتلة...

«ويقول كرامر إن الواقع المسيطر على ما عداه هو تكوّن عرق عربي حضري... فدمشق وبغداد، إلخ... آوت شعوباً عديدة متحدرة من إمتزاج الفاتحين بالسكان الأصليين. وهذه الثورة الإجتماعية الكبرى تمت في زمن العباسيين الأوائل. وهي على أهمية كبرى لاسيما وأن إدارة الشؤون العامة إنتقلت أكثر فأكثر إلى أيدي سكان المدن وإن العنصر العربي الخالص إستبعد أكثر فأكثر عن الدولة. وإنتقلت السيادة من العرب البدو الأقحاح إلى المولدين الحضر. وكان الموالي مزودين بما يكفي للتفوق على العرب... فكانوا مجلين بشكل خاص في اللاهوت والقانون... وبعدما غدت العربية اللغة الأدبية عموماً أصبح من الضرورة الملحة على السكان الأصليين الذين ما زالوا يستخدمون لغاتهم الأدبية السابقة أن يترجموا إلى العربية الكنوز التي كانت في حوزتهم سواء من كتب يونانية أو سريانية أو فارسية»[19].

ب ـ الإسهامات الإيرانية والهللينية

إن فارس، التي أسلمت وتعربت ظاهراً، إحتفظت ضمناً بشخصيتها الخاصة. وإن العقيدة الشيعية التي تتلاءم مع روحيتها النزاعة إلى الشرعية زودت معارضتها وحركتها التحريرية الوحدوية بجملة عقائد دينية. ففارس، التي تجددت بفضل الدين الإسلامي الجديد والتي كانت تتحلى بإحساس مرهف وشغف، ستلعب في الميدان الثقافي في العالم العربي ـ الإسلامي دوراً مهماً للغاية. ولذا فإن عصر العباسيين الأولين، الذي يسجل إنتصار العنصر الإيراني في إدارة الأمبراطورية، يسجل إلى جانب ذلك ذروة الحضارة العربية الشرقية التي هي في الواقع حضارة عربية ـ فارسية. وإلى جانب الإيرانية الشرقية أضافت الحضارة العباسية الهللينية الغربية: «ونظراً إلى مصادفة لا تخلو من السخرية، فإن الخلافة عندما إبتعدت عن مقاطعاتها البيزنطية ولم تعد دولة متوسطية دخلت مدرسة الهللينية في ذلك الوقت بالذات. وفي الوقت الذي لم تعد فيه القسطنطينية تحتفظ من الهللينية إلا بمظاهرها فإن تلك الهللينية راحت تملي على مجتمع الإسلام الجديد حاجة التفكير بعقيدة القرآن الكريم والأحاديث

19 Gautier, *op. cit.*, p. 227, 228, 229.

الأولى وهي عقيدة مختصرة قليلاً. وقد مدت هذه العقيدة بسعة تفكير وموقف فلسفي لم تكن أصولها الحجازية تنص عليهما. وإن الأدب المعبر عن هذا التطور غير المنتظر سيظل طيلة ثلاثة قرون باللغة العربية فقط»[20].

ج ـ مرحلة ذروة الحضارة العباسية

إن الحقبة الأكثر تألقاً والتي تشكل ذروة الحضارة العربية ـ الشرقية هي، كما أسلفنا، مرحلة القرن الأول من الخلافة العباسية (٧٥٠ ـ ٨٤٢) ففي وقت كانت فيه أوروبا الغربية (بإستثناء الخلافة العربية في قرطبة في إسبانيا) غارقة في البربرية كانت بغداد مركز إشعاع حضارة وأنوار. وقد بلغت بغداد أوج ازدهارها في عهد الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون (معاً من ٧٨٦ إلى ٨٣٣) وغدت أهم مدينة في الشرق. وفي جميع المراكز الفكرية أصبحت دراسة العهود القديمة شاملة على ما ستؤول إليه أوروبا بعد ذلك ببضعة قرون. وفي جميع الميادين الثقافية سيدعم الخلفاء بقوة تقدم الحضارة.

٢ ـ الأدب العباسي

إن المائة سنة الأولى من خلافة العباسيين تشكل العصر الذهبي في الأدب العربي. فكما ولد الفكر والفن بفعل إحتكاك العرب بالحضارة السورية البيزنطية في عصر أموي دمشق هكذا كان الأمر في بغداد فتحت تأثير الإيرانية والهللينية ولد إمتزاج الشعوب والحضارات إنطلاقة ثقافية رائعة. إن اللغة العربية، التي أصبحت منظمة ودقيقة، باتت تلبي التعبير عن الفكر المجرد وولدت نثراً جديداً. إن علم الصرف والنحو الذي أضيف إلى تفسير القرآن الكريم وشرحه أصبح في البصرة والكوفة ولاحقاً في بغداد علماً بكل معنى الكلمة. وأما التاريخ فكان يروي سيرة النبي محمدﷺ وسير صحابته وقصص الفتوحات.

إن الشعر القديم كان قد أصبح ميتاً عملياً وبات تقليدياً. وظهر شعر حي يبتعد عن التقاليد البدوية وعن الوحي الديني الذي ظهر في العصر الأموي ويعبر عن «حياة سادة الشرق الجدد المرهفة وعن خلجات الحب الحي وعن الحجج الجدلية الدقيقة. . . وإن الوحي الذي تميز به كبار الشعراء

20 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 275.

الفرس في العصور التالية كان قد بدأ يظهر لدى الشعراء العباسيين. كما كان العديد من هؤلاء الشعراء إما من الفرس الأقحاح أو من المولدين من عرب وفرس وقد إعتمد كلاهما اللغة العربية كوسيلة تعبير ولكنهما ظلا على أمانتهما للطبع الإيراني. فذلك مثلاً كان حال أكبر شعراء الغزل في ذلك العصر أبي نواس (المتوفى العام ٨١٠) والذي تظهر قصائده الغزلية والرثائية شعوراً عميقاً ومرهفاً»[٢١].

أما الخليفة المنصور فقد نفح الأدب بحركة نشطة جداً عندما أمر بترجمة أهم آثار الشعوب المتحضرة إلى اللغة العربية. وقد إحتلت ترجمات مؤلفات يونانية ـ بيزنطية فصلاً كاملاً من الفهرست. وتحولت مجموعة القصص الهندية الشهيرة «بنجا تنترا بالعربية إلى كتاب كليلة ودمنة. فيما المؤلّف الهندي الأساس في علم الفلك «السيد هانتا» أصبح بالعربية كتاب السند هند وترجمت قصص ألف ليلة وليلة من الفارسية.

«ومما يدعو إلى الإستغراب أن تكون أهملت ترجمة الشعر الأدبي المسرحي الكلاسيكي وتاريخ اليونان إلى العربية. . . فالعرب كانوا لاريب واقعيين بطبيعتهم وكانوا يعلقون أهمية كبرى على المعارف التي تخدم أهدافاً عملية: كالطب وعلم الحركة (ميكانيكا) والجغرافيا وعلم الرياضيات»[٢٢] والتي ترجمت نصوصها من اليونانية.

٣ ـ الفنون العباسية

هيمن التأثير الإيراني في أيام خلافة بغداد على الميدان الفني. . .

«فالعصر العباسي يمثل أهمية أساسية في تاريخ الفن العربي. ومع الأسف لا بد لنا من الإعتراف بأنه لم يبق أثر تقريباً من صروح بغداد الأثرية. . . في سامراء (مقر العباسيين الموقت) ما تزال هناك بقايا مسجد الخليفة المتوكل وقصر الخلافة في بلكووارع. وقد لاحظ السيد فيولي (عالم آثار فرنسي) أن تلك المجموعة الأثرية تندرج في خط الهندسة الإيرانية كما إختلطت هنا تأثيرات الفن الساساني مع تأثيرات الفن البيزنطي والفن السوري ـ القبطي. . . بيد أن الرسوم الزخرفية في فن سامراء أثبتت أنها

21 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I. p. 174.
22 B. Thomas, *op. cit.*, p. 137.

إسلامية بشكل خاص بزهورها المنمنمة التي تتوسط رسوماً ذات أشكال هندسية متكررة. . . ومع خطوط زخرفية متعرجة ملتفة حول عناقيد العنب وأوراقها. إن الصروح العباسية في بلاد ما بين النهرين أحدثت تأثيراً كبيراً ليس فقط على الفن الفارسي اللاحق بل أيضاً على الهندسة السورية ـ المصرية نفسها (جامع إبن طولون في القاهرة). . . إن الزخارف ذات الشكل الهندسي والنباتي هي العناصر الأساسية ـ علماً بأن الزخارف الحيوانية مستبعدة مبدئياً ـ التي سوف يتكون منها فن الزخرف الإسلامي كله. . . وكما بدأنا نلاحظ من خلال الخزفيات فإن إيران العباسية لم تمتنع أبداً عن تصوير الوجه البشري. وهذا الإنطباع يتأكد لنا حين ننظر إلى الرسم كما تظهره لنا التصاوير الجدرانية في سامراء»[٢٣]

وبرغم أن الموسيقى والغناء محرمان في العقيدة ويندرجان في خانة الكفر فقد كان المجتمع العباسي يتذوقهما. إن عرب الجزيرة العربية كالبدو اليوم لم يكن لديهم موسيقى آلية بل يعتمدون على الموسيقى الصوتية التي تستهويهم كالشعر. ولم يولد لهم تراث موسيقي عربي إلا بعد توسعهم خارج الجزيرة العربية وإحتكاكهم بالموسيقى الأكثر تطوراً لدى البيزنطيين والفرس، وجاءت هذه الموسيقى منسجمة مع أذواق المجتمع العربي ـ الإيراني.

ويومها ظهر العود والقيثارة والناي والكنارة والمزمار والبوق والطبل والطبلة. وأصبح لكل قصر من قصور الخلفاء والوجهاء الأغنياء مجموعته الموسيقية ومغنوه وراقصوه من الجنسين.

٤ ـ العلوم في أيام العباسيين

وإذا كان الأدب يستند إلى القرآن الكريم فإن العلوم والفلسفة هي في المقابل إرث يوناني. وهي ليست مدينة لجزيرة العرب لا ببذورها ولا بتربتها، وإنما باللغة وحسب. فعلماء ذلك العصر وفلاسفته كانوا يكتبون باللغة العربية بصرف النظر عن أصلهم العرقي، وكانوا في ذلك يحيون العلوم والفلسفات القديمة.

إن الخلفاء العباسيين البعيدين كل البعد عن التعصب كانوا يشجعون البحث عن العلم في أي مكان وجد. ولم يكونوا يخشون أبداً أن يعمل «العلم

23 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 178, 180, 182, 184, 185, 187.

الأجنبي» على زعزعة الإيمان الديني. وكان يُسمح بالمناقشات الدينية بين علماء مسلمين وعلماء غير مسلمين. وقد ولدت حركتان فعالتان هما: المفكرون الأحرار العاكفون على العلم اليوناني من جهة والقادة الروحيون المتمسكون بالعقائد التقليدية والمعادون للحكمة الوثنية التي كانت تشجع الهرطقات بل وحتى الإلحاد من جهة ثانية.

لقد كان المسيحيون النساطرة والقائلون بالطبيعة الواحدة في العراق وسورية ومصر إضافة إلى اليهود والإيرانيين هم من ترجم من السريانية إلى العربية الأعمال الرئيسية من الحكمة اليونانية والتي كانت قد ترجمت منذ زمن بعيد إلى السريانية والفارسية. وكانت الكنيسة النسطورية في بلاد ما بين النهرين أول من ترجم أرسطو إلى العربية.

«وهكذا راح الفلاسفة والرياضيون وعلماء الفلك والأطباء والبحاثة الشهيرون عالمياً والمجلون في علم اليونان يظهرون في سلسلة مستمرة خلال القرن التاسع والقرن الحادي عشر على مسرح الخلافة الشرقية، فأضفت عليها سحراً ما يزال إلى اليوم مدعاة فخر للعرب. وإذا كان بعض أولئك العلماء الشهيرين من العرب الأقحاح فلا بد من أن نتذكر بأن العرب كانوا فقط قلة ضئيلة جداً في إطار أمبراطوريتهم الواسعة الأطراف. . .

لقد أسس الخليفة المأمون في بغداد مكتبة كبيرة أطلق عليها «بيت الحكمة». . . وكان كبراء البلاط يتنافسون في جمع الكتب وقد شجع كل مسجد على القيام بمثل هذا العمل. كما أنشئت مدرسة لتعليم الترجمة في بغداد في ذلك العصر نفسه وعين على رأسها حنين إبن إسحاق وهو طبيب مسيحي كبير وفي الوقت نفسه من أبرع وأغزر التراجمة. وقد أرسل فريق من المترجمين ومعظمهم مسيحيون وصابئة ممن كانوا وحدهم يمتلكون العلم، إلى الإسكندرية وإلى مكتبات الشرق الأدنى والأوسط الأخرى ليرصدوا المخطوطات اليونانية القديمة ويعودوا بها إلى بغداد حيث يصار إلى ترجمتها. وهكذا وقبل نهاية القرن التاسع لم يكن غالينوس وأرسطوطاليس فقط قد ترجما إلى العربية بل العديد من أعمال أفلاطون السياسية وأعمال بطليموس وأوقليدس وأرخميدس الجغرافية والفلكية والرياضية.

إن أحد أهم إكتشافات الحضارة التي نحن مدينون بها للعصر العباسي هو إكتشاف الصفر وهو حجر الزاوية التي يقوم عليها كل علم الحساب لدينا

وكل نظامنا العددي الذي نستخدمه في الحياة اليومية. إن هذه الأرقام هي بالطبع إختراع هندي وبالفعل وقد سماها العرب أنفسهم هندية... لكن إدخال الصفر كان تبسيطاً عظيماً وثورة حقيقية في علم الحساب[٢٤].

٥ ـ الفلسفة

وفي العصر العباسي عرف الفكر الفلسفي «البعيد عن أن يكون نتاجاً طبيعياً من الروح السامية» إنطلاقته الحقة. ففي مدينة البصرة العراقية وجدت النظم المهرطقة من مرجئة وقدرية أتباعها وفيها وضعت عقيدة الخيار الحر في إحدى المدارس العقلانية.

«إن من يعرف الإسلام يدرك ان تعايش أي فلسفة مع العقيدة الإسلامية القويمة أمر مستحيل. فالفلاسفة كانوا دائماً موضع شك ومضطهدين في الغالب. وكانوا أحياناً يحصلون على حماية أو يشجعون من قبل امراء أكثر حكمة، لكنهم كانوا يعانون دوماً من عداوة الفقهاء والعلماء والجمهور. لذا يمكننا القول إن الفلسفة كانت مجرد حدث عارض في حياة العرب. ففي أيام الخليفتين العباسيين المأمون (٨١٣ـ٨٣٣) والمتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) تم نقل أبحاث يونانية في الطب والفلسفة الى العربية ـ عن ترجمات سريانية إجمالاً. وعكف العلماء بحماسة على دراسة أرسطو وتعليقات الفلاسفة المعاصرين لمذهب التوفيق بين المعتقدات المتعارضة وهو مذهب إسكندراني... محاولين أحياناً التوفيق ما أمكن بين الفلسفة والدين»[٢٥].

«إن النظريات الفلسفية المطبقة على تفسير القرآن الكريم ولدت علم الكلام. وفي هذا العلم حيث ستبذل الجدلية العربية ـ الفارسية كثيراً من الدقة تشكلت مدرستان هما: مدرسة المعتزلة التي كان شرحها للقرآن الكريم ذا ميول عقلانية ومدرسة المتكلمين التي كانت على إستقامة إيمانية اكثر صرامة. إن العديد من علماء المعتزلة سلموا خلافاً للتفسير العادي للقرآن الكريم بمبدأ الخيار الحر. وإن الخليفة المأمون (٨١٣ـ٨٣٣) الذي أسس في بغداد نوعاً من جامعة، حيث كان يدعو كل العلماء الى مناظرات حرة، شجع علناً المعتزلة. وظل التساهل سائداً حتى الخليفة المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي أيد ردة الفعل المتدينة التي قام بها المتكلمون»[٢٦]. وفي العام ٨٩٢ منع الخليفة المعتضد بيع

24 B. Thomas, *op. cit.*, p. 135-138.
25 Preux, *op. cit.*, p. 500.
26 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 177, 178.

كتب الفلسفة كما أن أحد الخلفاء ممن جاء بعده أبعد المفكرين الأحرار.

وكان العلماء يجتمعون في المسجد، الذي لم يكن مكان صلاة وحسب، حيث يتناقشون ليس في مسائل العلم فقط بل وأيضاً في المسائل الراهنة من سياسية أو دينية. وهناك كانت تعد المجادلات والمناظرات التي تستهوي الجمهور. إن الصراع بين المتمسكين بالأصول الدينية المستقيمة والعقلانيين (المعتزلة) والذي دام نحو قرنين كان له صداه في المساجد.

فالكندي، وهو أقدم الفلاسفة العرب والذي ولد في نهاية القرن الثامن وهو من أصل عربي صرف، ترجم نص أرسطو وعلق عليه وإن نظرياته حول النفس تشكل أساس الفكر الفلسفي العربي. وبعده بنحو قرن جاء الفارابي، وهو من أصل تركي ودرّس في دمشق حيث توفي العام ٩٦٠ وقد علق على أعمال ارسطو وأفلاطون وعلّم ان العالم ليس له بدء وهي عقيدة يرفضها الإسلام ناهيك بالمسيحية. أما إبن سينا المولود العام ٩٨٠ في مقاطعة بخارى فقد شرح أرسطو وكمله. وبعده بقرن جاء الغزالي المولود في شرق فارس والذي توفي العام ١١١١ وقد كان ذا فكر شكّاك، حارب الفلاسفة وأظهر بُطلان العلم مبدياً ان الحب الطاهر يمكن أن يقود الى الإطمئنان. فيما دحض إبن رشد، وهو عربي من إسبانيا وتوفي في المغرب العام ١١٩٨، شكوكية الغزالي.

وهكذا، وخلال أربعة قرون ـ من القرن الثامن الى القرن الثاني عشر ـ فإن فكر الشرق الفلسفي لمع ببريق ساطع «وقد سرى بالطبع عبر العالم العربي ـ اللغة وصولا حتى اسبانيا... وفي إسبانيا فإن الكنيسة المسيحية، وعلى خلاف الكنيسة النسطورية في فارس، لم تكن على إتصال بالفكر اليوناني. وهكذا ومثلما وصلت الفلسفة اليونانية من الشرق الى الإسلام بفضل عناصر مسيحية متسلسلة فإن تلك الفلسفة ستصل الى المسيحية في الغرب بفضل سلسلة إسلامية...

وكما أفاد العرب في القرنين الثامن والتاسع من الأعمال التي ترجمت من اليونانية كذلك فإن لاتين القرن الثاني عشر وما يليه سيفيدون في اوروبا من ترجماتهم من العربية الى اللاتينية. وهكذا إنتشر العلم اليوناني ـ العربي عبر أوروبا... واستيقظ الغرب المسيحي... ووقف تماماً على إرث اليونان الذي نقله اليه العرب ومع الزمن تخلى عن اللغة العربية ليمضي رأساً الى المناهل اليونانية»[٢٧].

27 B. Thomas, *op. cit.*, p. 147 et 149.

IV. حضارة مصر أيام الخلفاء الفاطميين

بالرغم من الأزمات السياسية فقد تمكنت ادارة الخلفاء الفاطميين من تأمين ازدهار زراعي وتجاري جديد لوادي النيل في الأزمنة القديمة. وهكذا عادت مصر وبقيت حتى عصر الحملات الصليبية المستودع التجاري الكبير للشرق حيث كان التجار الايطاليون يجدون فيها منتجات الهند وآسيا.

«إن هذا الازدهار انعكس على ميدان الفن فمصر الفاطمية عجّت بالصروح التي بقي العديد منها حتى يومنا. وأول تلك الصروح تاريخاً هو المسجد الأزهر في القاهرة والذي بناه القائد الفاطمي جوهر بين العام ٩٧٠ والعام ٩٧٢... وأما المسجد المعروف بجامع الخليفة الحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢٠) فقد بني على تصميم جامع إبن طولون نفسه ومثله صنع من الآجر... أخيراً إنتصر الحجر على الآجر في المساجد التي بنيت في آخر العصر الفاطمي في القاهرة...

إن المتحف العربي في القاهرة يحتوي على العديد من اللوحات الخشبية المحفور عليها مواضيع حية (وعول ـ أرانب ـ نسور ـ إلخ...) وهي مواضيع شعارية قديمة بعضها مقتبس عن منسوجات ساسانية. وإذا كان من غياب يخز الضمير حول تصوير الكائنات الحية فلأن ذلك يعود على الأرجح الى طائفة الخلفاء الفاطميين الشيعية. كما أن الطائفة الشيعية ـ وهي طائفة معظم الشعب الفارسي ـ هي التي تسببت بتلك القرابات بين الفن الفاطمي والفن الفارسي الساساني القديم. كما أن هذا التأثير نفسه يبدو في البرونزيات الفاطمية. فتلك الأعمال الفنية البرونزية تظهر غالباً شكلاً حيوانياً: عقبان، وعول، جياد، أسود، أرانب برية، طواويس، إلخ... وهنا أيضاً ندرك إلى أي مدى قرّبت سلالة الفاطميين الشيعية بين مصر المسلمة وإيران.

ويمكننا القول مثل هذا في المنسوجات... إنه الأثر الساساني اما المباشر

او المنقول بواسطة الفن القبطي والذي يبدو أنه طغى في المنسوجات الفاطمية. فنحن نجد أيضاً الموضوع الحيواني الذي لاحظنا وجوده في ايران عشية الفتح العربي. وعلى أي حال فهذه السلسلة من الأسود والعقبان والنسور الشعارية تخضع غالباً للأشكال الزخرفية الإسلامية الخالصة، كالتشبيك الزهري أو الزخرف النباتي الملتف كالأغصان والتي تنتهي بشكل عربسات.

وأما فن الخزفيات الفاطمية، فإنه كسائر الفنون تأثر بالفن الايراني أيضاً. وعلى غرار ما هي الحال في ايران فالموضوع الحيواني منتشر فيه بكثرة وبخاصة الطيور والبط والنسور، الخ... وحتى الوجوه البشرية تظهر أحياناً فيه»[٢٨].

28 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 149-200.

V. إنحطاط الحضارة العربية ـ الشرقية

إن الشرق العربي ـ الشرقي، وبعدما حمل مشعل الحضارة طيلة نحو أربعة قرون وبعدما غمرته من جديد الموجات الآسيوية، فإنه سقط مجدداً في الظلام. فخلال القرن الحادي عشر شُل الأدب العربي حتى لا نقول زال تماماً. وفي نهاية القرن الثاني عشر بدأت تظهر عليه عوارض الانحطاط. وخلال القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كان ما يزال هناك بعض الأدباء العرب إلا أن الحركة الأدبية خمدت. وأما في القرن الخامس عشر فلم تعد هذه الحركة تظهر إلا من خلال أعمال المؤرخين. وكان يكتفى بدراسة أعمال الأقدمين من غير أن يتمكن أحد، أو يكون له القدرة الخلاقة، على مضارعتها.

إن تردي العالم العربي ـ الشرقي الأدبي والعلمي يعود الى أسباب عدة: تفكك الأمبراطورية وغزوات المغول والتتر والبؤس العام والمجاعات التي خربت وأفرغت المدن الجامعية الكبرى من أهلها. ولا بد لنا أيضاً من إضافة الجهد المتزمت لدى استقامة الرأي الاسلامية التي شدت الخناق على تأملات الفلاسفة ونظريات العلماء.

«إن انحطاط العلوم الشرقية تزامن مع إنبعاث الأصوليات المتشددة في الإسلام وهو إنبعاث يعود تاريخه الى الجزء الأول من القرن الثاني عشر وكان صنيعة المعلم الديني الغزالي. . . لكن وفي القرن الرابع عشر فإن تردي الكتّاب العرب كان قد وصل الى درجة متدنية مما أفسح المجال أمام ظهور الممارسات السحرية والخرافية»[٢٩].

وأخيراً هناك سبب آخر لانحطاط الحياة الفكرية في الشرق المسلم ولم

29 B. Thomas, *op. cit.*, p. 143.

يشـر اليه المؤرخـون بشكل كـافٍ وهو تقلص مجـال عمـل اللغـة العـربيـة. «إن اللغة العربيـة أي لغة القـرآن الكريم والسلطة المـركزيـة كانت قـد فرضت عـلى الشعوب الآرية او الطورانية المنضمـة داخل أراضي الخـلافة الـواسعة وأصبحت نوعاً ما وسيلة النقل المشتركة. لكن في اليـوم الذي بـدأت فيه الخـلافة بالتفتت والحمية الدينية تخبو فقد كان لا بد أن يقابل تلك اللامركزية السياسيـة والدينيـة لا مركزية أدبية أيضاً. فعوض الكتـابة بـالعربيـة أصبح العلماء والمثقفـون يكتب كل منهم بلغته الأم كالتركية والتترية والأفغانية والهندستانية وبخـاصة الفـارسية. وإحتفـظت العربيـة فقط بميدان الـدين. فبقيت اللغـة العـربيـة لاتينيـة الشـرق المسلم. وهذا ما يفسر لنا انـه، ومنذ القـرن الخامس عشـر وحتى القرن التـاسع عشـر، لم يعـد الأدب العـربي ممثلاً إلا ببعض التعليقـات عـلى التعليقـات التفسيرية الأكثر قدمـاً أو بعض الأخبار التـاريخية التي تفتقـر الى عنصر التشـويق والحس النقدي وسحر الأسلوب»[٣٠]

إذن فمن الخـطأ أن ننسب الى الـدين الاسـلامي انـه كـان وراء تـردي النشـاط الأدبي والعلمي في المجتمع العـربي الشـرقي والمسلم. فـالـدين، ككـل المؤسسـات الاجتمـاعيـة، يعكس حضـارة مجتمـع مـا ودرجـة تـطوره. وإن الاسـلام، كـما رأينـا، لم يحـل دون إنـطلاقـة الأدب او العلم أو الفن خـلال القرون الأولى التي تلت ظهوره.

30 Preux, *op. cit.*, p. 501.